الأبعاد التداولية في تفسير القرآن الكريم، تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور نموذجا.

Pragmatic dimensions in the interpretation of the Noble Qur'an, interpretation of "Atahrir and Atanwir" as a model.

طالبة دكتوراه: حساني سهيلة.
قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة ثليجي عمار-الأغواط، الجزائر.
Hasanisouhila2017@gmail.com

ملخص:
تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف عند القراءة التي تبناها الشيخ ابن عاشور وهي القراءة التفاعلية التي تهتم بعدة عناصر؛ كالنص والقارئ والسياق، وتمازجها البنائي باعتبار أن لكل متلق أفقه التداولي الذي يوافق الأفق الموضوعي المتواضع عليه. والذي جعلني أختار السمات التداولية عند الشيخ بن عاشور رحمه الله تصوراته التجديدية بخصوص علم التفسير وصلته بدائرة علوم القرآن والمخاطبين به من خلال المقدمات العشر التي قدم بها تفسيره وجاءت في عديد من المواقف متحررة من سلطة التراث.
كلمات مفتاحية: التفسير، التداولية، اللغة، القرآن، الخطاب.

Abstract:
This study seeks to search fort he analytical mechanisms adopted by Cheikh Al-Taher bin Achour in his interpretation oft he Quran, by studing the following elements:
-levels of significace and elements of the communicative process.
-multiple meanings for one word.
-intention and Interpretation.
Keywords: Interpretation; communicative process; pragmatics; language; discourse.

المؤلف المرسل: سهيلة حساني، **الإيميل:** Hasanisouhila2017@gmail.com

1. مقدمة:

تعد التداولية حقلا لسانيا يهتم بالاستعمال أو الانجاز للغة فهي تأخذ بعين الاعتبار المتكلم والسياق، وشروط التخاطب الهدف من الخطاب لفهم كيفيات الإنشاء والتأويل.

والباحث في الدراسات التراثية العربية الإسلامية في مجال التفسير خصوصا، يجد من الأفكار النيرة ما يشد لب الباحث ويستقطب جهده، ونعتزم في هذا البحث ابراز المنهج التداولي عند الطاهر بن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير ونحاول التطرق للمقاربات التداولية المعروضة ومقاربة خططها وطرائقها التحليلية مع التي وظفها الشيخ بن عاشور في قراءته للنص القرآني، وتفتيشه عن المعنى وعن قصدية الخطاب القرآني.

كما نسعى إلى الوقوف عند القراءة التي تبناها الشيخ وهي القراءة التفاعلية التي تهتم بعدة عناصر؛ كالنص والقارئ والسياق، وتمازجها البنائي باعتبار أن لكل متلق أفقه التداولي الذي يوافق الأفق الموضوعي المتواضع عليه. والذي جعلني أختار السمات التداولية عند الشيخ بن عاشور رحمه الله تصوراته التجديدية بخصوص علم التفسير وصلته لدائرة علوم القرآن والمخاطبين به من خلال المقدمات العشر التي قدم بها تفسيره وجاءت في عديد من المواقف متحررة من سلطة التراث.

- **الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (1879-1973) وتفسيره التحرير والتنـوير :**

ولد الشيخ في قصر حدة للأم الوزير محمد العزيز بضاحية المرسى في شمال تونس 1879 أبوه الشيخ محمد بن محمد بن الطاهر الأول بن محمد بن الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور[1].

حفظ القرآن في سن السادسة وتلقى دروسا في اللغة العربية ومبادئ الشريعة الاسلامية وفي جامع الزيتونة بنبوغه أكثر وفيه حصل على شهادة التطويع[2].

وقال عنه الشيخ محمد البشير الابراهيمي «علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ من ذخائره، فهو إمام متبحر في العلوم الاسلامية مسائل في الاستدلال واسع الثراء في كنوزها نافذ البصيرة في معقولها.....»[3].

- **مؤلفاته:**

له مؤلفات كثيرة في فنون مختلفة في الشريعة الاسلامية وفي الدراسات اللغوية والأدبية بالإضافة إلى الشرح والتحليل والتحقيق والتعليق، منها المطبوع ومنها المخطوط وأهم هذه المؤلفات وأضخمه شكلا ومضمونا «تفسير التحرير والتنوير» الذي يقع في خمسة عشر مجلدا.

وكتاب مقاصد الشريعة الإسلامية، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، التوضيح والتصحيح في أصول الفقه. موجز البلاغة، كشف المغطى في أحاديث الموطأ، أصول التقدم في الإسلام، ومن مؤلفاته أيضا الوقف وآثاره في الإسلام.

2- تفسير التحرير والتنوير:

سمى ابن عاشور تفسيره بـ «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»[4] ثم اختصر هذا الاسم باسم التحرير والتنوير من التفسير.

ومن أهم مصادر هذا التفسير: تفسير الكشاف لزمخشري، المحور الوجيز لابن عطية، ومفاتيح الغيب للرازي، وتفسير البيضاوي، وتفسير الشهاب الألوسي، وما كتبه القزويني والقطب والطيبي عن الكشاف، وما كتبه الخفاجي على البيضاوي وتفسير أبي السعود وتفسير القرطبي، وتفسير الطبري، وكتاب درة التنزيل المنسوب لفخر الدين الرازي.[5]

وتكلم عن دلالة التمثيل والايجاز والتلميح والمبالغة والاستطراد والاشتراك والتسامح[6]، هي دلالات لا يكن بناؤها أو انجازها كما لا يمكن فهمها وتحليلها إلا باستحضار أطراف التخاطب أي المتكلم والمخاطب والتداوليات الحديثة أولت عناية كبيرة للبنى الإضمارية وصلتها عنصري المتكلم والمخاطب وباعتبار التفاعل اللساني وغير اللساني الذي يوجه الكلام ويحدد مساره ويرى ليتش Leech بأنه لا يمكننا فهمنا للكلام دون استحضار شروط إنتاجه المحيطة به، هاته عنصري المتكلم والمخاطب.[7] هاته الأخيرة التي هي أطراف أساسية هامة لا غنى عنها في العملية الخطابية.

3- المنحى التداولي عند ابن عاشور:

تتشعب وتتداخل عناصر التحليل التداولي وقد يصعب استقصاؤها، لذلك اخترنا منها ما كان عند الشيخ ابن عاشور متصلا بمسالة القراءة والتأويل وبعض متعلقاتها، وهي كلها مباحث تداولية عن المعنى ومنها:

3-1/مستويات الدلالة وأطراف التخاطب: يميز الشيخ ابن عاشور بين مستويات لدلالة في خطابه حيث تحدث عن الفرق بين تفسير الباطنية وتفسير الصوفية[8].

فيبين من تلك المستويات الدلالية التداولية:

دلالة العبارة في مقابل دلالة الاشارة. وتحدث عن دلالة المخالفة ودلالة الرمز ودلالة التضمن ودلالة الالتزام ودلالة الاقتضاء ودلالة لحن الخطاب ودلالة فحوى الخطاب والدلالة العرفية والوضعية والأصلية....[9] وهي أطياف من الدلالة تبين مدى وعي الشيخ بتصرفات الدلالة في التداول. وتجلياتها انطلاقا من الظهور إلى الخفاء ومن النصية إلى درجات الاضمار التي يحتاج معها المخاطب إلى جهد في إدراكها يتفاوت حسب قدراته التأويلية وحسب الاستعمال التداولي. كما تكلم الشيخ في دلالة الكناية والتهكم والتعريض[10] وهي دلالات تداولية يستدل

على المعنى المقصود فيها باجرا استدلالات خاصة، إذ يقول: «وليس من الإشارة في الأصول بدلالة الإشارة وفحوى الخطاب وفهم الاستغراق في المقام الخطابي ودلالة التضمن والالتزام».

2-3/قضية تكوثر المعنى واللفظ واحد:

تختلف المقاربات في الدرس التداولي في مسألة تعدد المعنى وقد نقل لنا منها الشيخ ابن عاشور بعض الآراء. واختلاف الأصوليين في تناولها والترجيح بين المعاني. وانتقد طرق ومذاهب في الترجيح، كما بسط مذهب الجمع بين المعاني والدلالات في معاني التأويل.

والشيخ ابن عاشور انطلق في تأسيسه للحديث المشترك من منطلق معجزية النص القرآني يقول : «فالقرآن من جانبه إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم، وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم، كان حقيقا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحمله الألفاظ في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها ليحصل تمام المقصود»[11]

ويميز ابن عاشور بين أصناف من دلالات المشترك ويقول «ثم إن معاني التركيب المحتمل فص عدم قد يكون بينهما العموم والخصوص، فهذا النوع لا تردد في جمل التركيب على جميع ما احتمله، ما لم يكن عن بعض تلك المحامل صارف لفظي أو معنوي مل حمل الجهاد في قوله تعالى: «ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه» (العنكبوت) على معنيي مجاهدة النفس في إقامة شرائع الإسلام ومقاتلة الأعداء في الذود عن الاسلام.[12]

وهذا الذي ذهب إليه الشيخ ابن عاشور نفسه ما ذهب إليه التداوليون المعاصرون حين تحدثوا عن المشترك باعتباره ظاهرة دلالية تداولية في نفس الوقت مثل (مارتن)[13] واهتم كذلك بها كلير وبتعدد المعنى والعلاقة بين الأشكال النحوية والمنطقية بذلك.[14]

وتحدث ابن عاشور عما راج بين المفسرين والأصوليين وأرباب الكلام من تداخل المجاز مع الاشتراك في بعض التحاليل والذي نجده يتكرر عند بعض التداوليين.[15]

غير أن الشيخ لا يترك المناسبة من غير أن يسجل موقفه من الخلاف مجتهدا في وضع الحدود.

ويفرق بين المجالين الدلاليين الأول الحقيقة والثاني المجاز كما هو تعريفه بين القرينتين موفق جدا، فقرينة المجاز مانعة من ايراد المعنى الحقيقي وقرينة المشترك غير مانعة، وهو ما يسمح بقبول تعدد معاني القرآن جميعها التي يحتملها السياق وهو مذهبه المختار، يقول شارحا منهجه الذي ارتضاه «والذي يجب اعتماده أن يحصل المشترك والتركيب المشترك بين مختلف الاستعمالات سواء كانت المعاني حقيقة أو مجازية محضة مثال استعمال اللفظ المفرد في حقيقته ومجازه قوله تعالى : «ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر.....» الحج 18 فالسجود له معنى حقيقي وهو وضع الجبهة على الارض، ومعنى مجازي وهو التعظيم واستعمل فعل يسجد هنا في معنييه المذكورين.[16]

ومثال استعمال المركب المشترك قوله : «ويل للمطففين» (المطففين1) فمركب ويل يستعمل خبرا ويستعمل دعاء وقد حمله المفسرون هنا على كلا المعنيين، وعلى هذا القانون يكون طريق الجمع بين المعاني، أو ترجيح بعضها على بعض، وقد المفسرون غافلين عن تأصيلا هذا الأصل، فلذلك كان الذي يرجح معنى من المعاني التي يحتملها لفظ آية من القرآن يجعل غير ذلك المعنى ملغى. ونحن لا نتابعهم على ذلك. بل نرى المعاني المتعددة التي يحتملها اللفظ دون الخروج عن معنى الكلام في تفسير الآية[17] .

إن تأويل المشترك مفردا ومركبا فيما يقدمه الشيخ ابن عاشور يطرح اشكالية النص الذي لا يقدم نفسه دائما بشكل مباشر، وإنما يأتي في كيفيات مختلفة وراءها مقصدية المرسل. والظروف التي يروج فيها النص، وجنس النص وهذه الماورائيات نفسها تؤدي الى اختلاف استراتيجية.[18]

3-3/ التناسب بين الدلالة والتداول : التزم الشيخ في تفسيره التناسب انطلاقا من رأي فخر الدين الرازي، وبرهان الظين البقاعي في كتابه " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"[19]والشيخ ابن عاشور رغم اجتهاده في طلب المناسبات الا أنه من باب الموضوعية لم يمنع امكانية وجود فراغ تناسبي بين بعض الآيات إذا نظر إليها من جهة ترتيب نزولها وفي صلتها بموقعها المتأخر والمتقدم عن زمن نزولها ومعلوم أن ترتيب الآيات في القرآن الكريم لم يخضع لترتيب النزول، وإنما هو أمر توقيفي حصل فيما بعد بأمر من الرسول "صلى الله عليه وسلم " ، أي أن التشكيل النهائي للنص القرآني وهندسته ربانية ولا اجتهاد فيها، ومثل هذا كثير لقوله تعالى: " سيقول السفهاء" البقرة 142، يقول ابن عاشور : قد خفي موقع هذه الآية من الآيات التي بعدها لأن الظاهر منها أنها أخبار عن

أمر يقع في المستقبل ، وأن القبلة المذكورة التي كانت في أول الهجرة وأن التولي عنها هو نسخها باستقبال الكعبة، فكان الشأن أن يترقب الطاعنين بعد هذا التحويل ، والسورة نزلت متتابعة والأصل موافقة التلاوة للنزول في سورة واحدة ، إلا ما ثبت أنه نزل متأخرا ويتلى مقدما . والظاهر أن القبلة المقصودة هي بيت المقدس وهي قبلة اليهود ولم يفصل المفسرون وأصحاب النزول في هذه النقطة. واستقر الشيخ على وجود مناسبة بديعة وهي أن الآيات التي قبلها تكرر فيها التنويه بإبراهيم وملته والكعبة، ولعل هذا مثارا لأن يقول المشركون ما ولى محمدا عن قبلة ابراهيم، وجاءت الاشارة في الآيات السابقة بقوله تعالى " ولله المشرق والمغرب" البقرة 115.[20]

وجعل الشيخ التناسب لا يقتصر على القرآن فحسب، بل قد يدخل في جملته الوحي بمفهومه العام بما فيه نصوص السنة. ولا ينبغي وقوع التعارض بينهما باعتبار أن التناسب هو طلب الانسجام بالنظر في النصوص. والأصل ان يفسر بعضهما بعضا. ويقول الشيخ ابن عاشور عن علاقة بعض أسباب النزول السياقية بالنص القرآني "" ومن هذا القسم مالا يبين مجملا ولا يؤول متشابها، ولكنه يبين وجه تناسب الآيات بعضها مع بعض ".[21]

وطلب التناسب أو المناسبة له مراتب عند الامام ابن عاشور يبتدئ من أدنى مستويات الدرس اللساني، ألا وهو تناسب الأصوات فيما بينها مرورا بتناسب الكلمات في النظم إلى تناسب السور وهو كله أمر توقيفي لا مدخل للتوفيق فيه إلا من جانب الكشف عن أسرار التناسب الظاهرة والخفية.

كما أن التناسب عند الشيخ مرتبط بمسألة القراءة والتأويل وارتباطا قويا من جانب تطلب التأويل لعلاقات السابق باللاحق والسبب بالمسبب، والاقتضاء والتلازم وباقي العلاقات الأخرى، كما أنه مرتبط بمسألة التذوق وهي مسألة نفسية من متعلقات التلقي، ونقل الزركشي عن عز الدين بن عبد السلام " المناسبة علم حسن ويشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط. والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة، في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة. وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض.[22]

إن تأكيد الشيخ ابن عاشور على انسجام القرآن ووحدته من خلال تناسب آياته.[23] يطرح قضية تداولية ألا وهي مكمن الانسجام أهو النص أم نوعية القراءة؟ وهل الانسجام معطى بنيوي أم استراتيجية تعتمد على إشادات نصية؟

بمعنى أن الالتحام الذي يبنيه التأويل ليس التحاما داخليا، ولكن بالأحرى التحام خارجي عن النص ولاحق به[24] والبحث عن الإجابة تقرير بالدليل الخطابي والبرهاني على أن وحدة النص القرآني داخلية بنيوية، وهي دليل على أن كلام الله واحد، والوحي كله واحد، قرآنا وسنة، ولهذا قال ابن القصار : «الكتاب والسنة.....كلها كالآية الواحدة»[25].

4- أهم القضايا التداولية عند ابن عاشور:

4-1) القصد والتأويل:

يقرر الشيخ ابن عاشور في المقدمة الثانية من تفسيره أن من مطالب التفسير "معرفة جميع مراد الله"[26] كما يذهب إلى «أن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم »[27] قال الله تعالى : «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ»النحل 89، فكان المقصد منه صلاح الأحوال وليست معرفة المراد سوى معرفة القصد والمقصد، وهذه المعرفة من جملة ما تتقصاه الدراسات التداولية، ولما كانت الغاية من التأويل إدراك القصد من الخطاب، «فإن التأويل يختلف عن التفسير في إصابة أعماق النص والكشف عن طاقاته»[28]، فالمعنى الذي نبحث عنه في طبقات الخطاب وترسباته ليس سوى القصد والغرض الذي من أجله كانت اللغات وكان التواصل. وفي هذا يقول ابن جني عبارته المشهورة في تعريف اللغة بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم».[29] فالمعنى الذي نبحث عنه في طبقات الخطاب وترسباته ليس سوى القصد والغرض، الذي من اجله كانت اللغات وكان التواصل، وفي هذا يقول ابن جني عبارته المشهورة في تعريف اللغة لأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[30]

ويحرص الشيخ ابن عاشور على القصد والمقاصد في عملية التأويل فينقل قول السكاكي. في حاجة المفسر لعلم البيان موضحا «لأن الكلام الحكيم يحتوي على مقاصد جليلة ومعاني غالية لا يحصل الاطلاع على جميعها أو معظمها إلا بعد التمرس بقواعد بلاغة الكلام المفرغة فيه.[31]

ويطابق الشيخ ابن عاشور بين قصد المتكلم وقصد الكلام فيرى أن مراد الله من كتابه هو بيان التصاريف التي تحفظ مقاصد الدين، وأودع ذلك في ألفاظ القرآن وقال تعالى: « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » سورة ص الآية 29.

وطريقة معرفة القصد أو القصد عند الشيخ ابن عاشور هو النظر في ألفاظ القرآن لا غير، وليس عجبا وجود مبدأ "الاتصال اللازم" بين القصدية واللفظية فلا

ينفصل هذا عن ذاك فالمقاصد كما رأينا تخفى فلا تعرف بالقول. أو بما يقوم مقامه القول من شواهد الحال ومن اهتمامات الشيخ ابن عاشور ببحث القصد التداولي حديثه عن تنوع ورود القصة الواحدة في القرآن «ومنها أن يكون يعض القصة المذكور في موضع، مناسبا للحالة المقصودة من سامعها.....وبذلك تتفاوت بالإطناب والايجاز على حسب المقامات ألا ترى قصة بعث موسى كيف بسطت في سورة طه وسورة الشعراء وكف أوجزت في آيتين في سورة الفرقان[32] «وَلَقَد ءَاتَينَا مُوسَى ٱلكِتَٰبَ وَجَعَلا مَعَهُۥ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرا (35) فَقُلنَا ٱذهَبَا إِلَى ٱلقَومِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرنَٰهُم تَدمِيرًا (36) » الفرقان 35-36.

كما نبه الشيخ ابن عاشور على نوع من القراءات الباطنة للقرآن الكريم، وهي قراءات قديمة بحيث يكون المؤول للنص على نزعة أو مذهب فيأول القرآن وفق رأيه ويصرفه عن المراد، وهذا الوضع التأويلي المختل يطرح بكل جدية سؤال حدود التأويل. والشيخ ابن عاشور لم يكن غافلا عن أهمية هذا السؤال. ولهذا نجده يقرر أن شرط توفر الفهم عند المؤول «ألا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل. ولا يكون تكلفا بينا ولا خروجا عن المعنى الأصلي حتى لا يكون كتفاسير الباطنية»[33]

2-4) القراءة التفاعلية :

من أحد رهانات الشيخ ابن عاشور معالجة هذه المسألة التأويلية يقترح البديل التداولي، إن القراءة التي ينادي بها الشيخ ابن عاشور القراءة التفاعلية التي تتجاوز نفسها في كل لحظة فنجد فيها درجات الاستقبال والتلقي النفسي الإيماني، وهي التي تطمح إلى الكشف على الدوام عن الجديد الممكن في النص القرآني بالقرآن باعتباره لغة الوحي فهو لا يختص بفئة من الناس أو زمانا مخصوصا وإنما هو خطاب للحقيقة البشرية.

« والنص القرآني الذي افترضناه خطابا للحقيقة الإنسانية لا يني يخرج مكوناته للإنسان في كل عصر ، فينهل منه الانسان دون أن تضعف طاقاته عن العطاء»[34] ويجيب الشيخ ابن عاشور على القراءات الحاجبة أو السلبية « أما الذين جمدوا على القول بأن تفسير القرآن يجب أن لا يعدو ما هو مأثور ،فهم رموا هذه الكلمة على عواهنها ولم يضبطوا مرادهم المأثور، فإن أرادوا به ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسير بعض الآيات، إن كان مرويا بسند مقبول من صحيح أو حسن ، فإذا التزموا هذا الظن لهم فقد ضيقوا سعة معاني القرآن وينابيع ما يستنبط من علومه».[35]

ويرى الشيخ ابن عاشور أن القراءة التفاعلية هي التي ترقى إلى مصاف القراءات التداولية نظرا لتوفر شرط الراهنية والمباشرة، وهذا الشرط هو سر التجديد والتجدد.

والقراءة التفاعلية تستضمر دون شك قراءات سبقتها طوال مسيرة التلقي النصي، فهي لا تستطيع التخلص منها تمام التخلص، ولكنها تجعل القارئ يسعى إلى أبعد الحدود الممكنة للنص.

3-4) سياق التنزيل :

تكلم الشيخ ابن عاشور في المقدمة الخامسة عن أسباب النزول ويميز بين أنواعها، إذ يقول «وقد تصفحت أسباب النزول التي صحت أسانيدها فوجدتها خمسة أقسام[36]» ومن الناحية التداولية يمكن تمييز نوعين من أسباب النزول :

النوع الأول : ويعده الشيخ ابن عاشور شرطا في فهم المراد، والمقصود من النص، فلا بد من البحث عنه، ومنه تفسير مبهمات القرآن، ومن الأمثلة عن ذلك قوله تعالى : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا» (المجادلة 1)، فالضمير والموصول لا يعنيان الشخص حتى تعرف المعني بالقصة ، وعلى من تعود ، وفي الآية الكريمة نجد مفسر الضمير خارج النص، أي يحيل على خارج النص أو ما يسمى بالإحالة المقامية ، فتكون المراقبة تداولية وليست لغوية[37] ومثال آخر هو قوله تعالى« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ »(المائدة 44) يقول الشيخ ابن عاشور «فإذا ظن أحد أن (من) للشرط أشكل عليه كيف يكون الجور في الحكم كفرا ، ثم اذا علم أن سبب النزول هم النصارى علم أن (من) موصولة وعلم أن الذين تركوا الحكم بالإنجيل لا يتعجب منهم أن يكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم[38] وعليه فمعرفة أسباب النزول من هذا الجانب بالذات مبنية على تعرف الإعراب أو الأوضاع التركيبية وعلى معرفة الدلالة أو المعنى، وهذا طريق لتأويل النص بأجمعه تداوليا، إن (من) في العربية على أربعة وجوه شرطية واستفهامية وموصولة ونكرة موصوفة[39]، وقد يأتي النص يحتملها كلها إلا أن يفرق بينهم بسبب سياقي خارجي يكون بمنزلة القرينة الخارجية.

النوع الثاني : وهو دون الشرط، ولكنه مكمل للفهم ولا يفيد تخصيصا أو تقيدا ، لأن الحكم وإن تعلق بقصة وسياق فهو ضارب في عموم اللفظ ، لا بخصوص السبب كقول أم سلمة رضي الله عنها : «يغزو الرجال ولا نغزو» فنزل قوله تعالى :((وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ)) النساء 32. [40]يتبين من هذا الذي أتينا عليه أن النص لا يعيش خارج سياقه، كما أنه لا يمكن قراءته من مفاتيحه إلا بالقدر الذي يستوفي فيه المستدل شرط استجماع عناصر سياق تنزله،

وهذه قراءة تأويلية خاصة «تحاول العودة إلى زمن النص،كي تقرأ مفرداته بمعانيها السائدة آنذاك ، فلا تسقط عليها معاني زمن آخر[41] »

ولا ينبغي النظر للأسباب السياقية لتنزيل القرآن ببساطة مخلة، تحمل على الاعتقاد بأن الإشكالات التأويلية للنص القرآني تنحل بمجرد الإحاطة بها، وذلك لأنها تطرح إشكالين شديدي التعقيد من وجهة نظر الشيخ ابن عاشور :

الأول: إن أسباب النزول موضوع اختلاف وتباين في الروايات لها عند كل فريق ما يكفي لتوجيه كل رواية والأصل في هذا الإشكال قد ينحل نسبيا، إذا ربطنا عملية التنزيل بموافقة أحوال الصحابة على تباين بينهم في الفضاءات المكانية والحالية لنزول الوحي.[42]

الثاني: حيث ان أسباب النزول على ما بينها من اختلاف تشكل نسبة ضئيلة من السياقات التي حفظت، وهي محدودة عددا، فعن ابن سيرين قال: «سألت عبيدة عن شيء من القرآن، فقال اتق الله، وعليك بالسداد فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن».[43]

- إذا كان الشيخ ابن عاشور يجد العذر للمصنفين في هذا العلم إلا أنه يلوم على المفسرين الذين لم يراعوا النقد لهذه السياقات المرورية، ويتحققوا منها لإفادة الدلالة القرآنية، ويقول الشيخ: «ولكني لا أعذر أساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة فأثبتوها في كتبهم ولم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفا »وعلى قدر علم المؤول بسياق النزول تزيد دلالة النص القرآني ويرتقي فهمه.

5-خاتمة :

حاولنا في هذه الورقة البحثية أن نكشف عن الأبعاد التداولية للشيخ ابن عاشور في تفسيره الخطاب القرآني وما يتصل به من قضايا تداولية، مثل المناسبة المقامية والسياقية وبعض الاستراتيجيات الخطابية.

وللمنهج التداولي آليات تؤهله لتحليل الخطابات بجميع أنواعها دينية، أو قانونية أو سياسية.... وقد بين الشيخ ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير ومقدماته النظرية، علاقة المفسر المركبة مع النص وركز على اشتغال المفسر بالخطاب القرآني في بحثه عن القصد وإيضاح الأساليب والقواعد المتبعة لبيان أثره في الخطاب، باعتبار هذا الأخير فعل تواصلي قصدي بالدرجة الاولى.

6-الإحالات والمراجع:

[1]أنظر مي ثامر مفتاح العلي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، دار الثقافة الدوحة قطر، 1994، ص19.
[2]محمد الحبيب ابن خوجة، جوهر الإسلام عدد4، ص12.
[3]محمد الحبيب ابن خوجة، محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، قطر 2004، ص169.
[4]أنظر محمد الطاهر بن عاشور تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص9/8.
[5]أنظر ابن الخوجة، محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة، ص320.
[6]ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص36.
[7] Leech G- The principals Pragramatics, London, Lo,gman, 1983, P4.
[8]يونس علي محمد، علم التخاطب الاسلامي، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، بيروت، دار المدار الاسلامي، 2006م، ص208.
[9]الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر والدار الجماهيرية للنشر، ج1، ص36.
[10]ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق،ج1، ص93.
[11]ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص93.
[12]المرجع السابق، ج1، ص96.
[13] Martin Robert pour une logique du sens contemporaine-Paris colin 1968.P17.
[14] Kleir Georges la sematique du prototype Paris Puf 1990.
[15]ألفة يوسف، تعدد المعنى في القرآن، تونس، دار حر للنشر، ط1، 2003، ص34.
[16] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص98.
[17] المرجع السابق ج1 ص 99
[18]التأويل مفتاح محمد. مجهول البيان، الدار البيضاء. دار تيقال للنشر ، 1990 ص89.
[19]ابن عاشور. التحرير والتنوير . مرجع سابق ج1 ، ص 8.
[20]المرجع السابق ج 2 ص 5.
[21]المرجع السابق ج1 ص 50
[22]المرجع السابق ج1 ص 117.
[23]خطابي محمد . لسانيات النص ، مدخل الي انسجام الخطاب ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ط 1 1991 ص 193
[24]رمضان يحي- القراءة في الخطاب الأصولي- الاستراتيجية والاجراء، الأردن، عالم الكتب الحديث، ط1 2007، ص226.
[25]ابن القصار، المقدمة في الأصول، تحقيق محمد بن الحسين السليماني، بيروت، دار المغرب الإسلامي، ط1، 1996، ص59.
[26]ابن عاشور التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص20.
[27]المرجع السابق، ج1، ص36.
[28]»عبد الغفار، ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، الرياض، دار الرشيد، 1980م، ص152.
[29]ابن جني، الخصائص، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1986، ص34.
[30]ابن جني، الخصائص، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1986، ص34.
[31]ابن عاشور التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص19

[32]ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص31
[33]المرجع السابق، ج1، ص44.
[34]النيفر احميدة النص الديني والتراث الإسلامي، بيروت دار الهادي، ط1 ، 2004 ،ص94.
[35]ابن عاشور التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1,ص 29.
[36]المرجع السابق، ج1،ص47
[37] الفاسي الفهري .الدلالة النظرية لبعض الظواهر الإحالية في اللغة العربية -سلسلة اللسانيات، تونس، عدد5، 1981،ص83.
[38]ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، مرجع سابق ،ج1، ص :50
[39]الانصاري ابن هشام مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، ت: مازن المبارك، محمد علي، دمشق ، دار الفكر، ط1، 1992م ،ص432
[40]الترمذي محمد بن عيسى سنن الترمذي، ت: محمد أحمد شاكر وآخرون بيروت دار إحياء التراث العربي ،ج5، حديث رقم 3022 ص137
[41]النيفر ، النص الديني والتراث الاسلامي ،مرجع سابق ص167.
[42] ابن عاشور التحرير والتنوير، مرجع سابق ، ج1، ص: 43.
[43]المرجع السابق ، ج3، ص :350